﴿*أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [الإسراء: 99]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبة بين إنكارِ البعث وتأكيدِ قدرة الله على الخَلْقِ إيجادًا وإعادةً

لَمّا أجابَ ﷺ عن شُبُهاتِ مُنكِري النُّبوَّة، وعادَ إلى حكايةِ شُبهةِ مُنكري الحَشْرِ والنَّشْرِ ليُجيبَ عنها، وتلكَ الشُّبهةُ هي أنَّ الإنسانَ بعد أن يَصيرَ رُفاتًا ورَميمًا، يبعُدُ أن يعودَ هو بعينِه، فناسبَ أن تُذكر الآية جوابًا عن تلك الشّبهة، وهو أنَّ مَنْ قدَرَ على خلقِ السَّماواتِ والأرض، لم يَبعُدْ أن يقدِرَ على إعادتِهم بأعْيانِهم، بأجلٍ قدَّرَه اللّهُ لهم لا يتخلَّفُ عن موعدِه، ولكن بعد هذه الدَّلائلِ الظّاهرةِ أبَى الظّالمونَ إلّا الكُفْرَ والجُحود[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَجَلًا﴾: (أجل) أصلٌ صحيح، يدلُّ على الأَجَل، وهو المدَّةُ المضروبةُ للشَّيء، قال تعالى: ﴿وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ [غافر: 67]، وأَجِلَ هذا الشَّيءُ وهو يأجَلُ، والاسْمُ الآجِلُ: نقيضُ العاجِل، والأجيلُ: المُرجأُ؛ أي: المُؤخَّرُ إلى وقت، وقد أَجَّلْتُه: جعلتُ له أَجَلًا، ويُقالُ للمُدَّةِ المضروبةِ لحياةِ الإنسان: أَجَل، فيُقال: دنا أجلُهُ، كنايةً عن دُنوِّ الموت، وأصْلُه: اسْتيفاءُ الأَجَل؛ أيْ: مُدَّةُ الحياة[2]، وحيث إنّ الأجل هو مدّة الشّيء؛ فإنّ الآجلة ضدّ العاجلة[3]، وقولُه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا﴾؛ أيْ: حدَّ الموت، أو: يومَ القيامة[4].

2) ﴿فَأَبَىٰ﴾: (أبي) أصلٌ يدُلُّ على الامتناع، أبَيْتُ الشَّيءَ آباهُ،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 412.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المُفردات: (أجل).
(3) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (أجل).
(4) الزَّمخشري، الكشَّاف: 2/ 467.

وقومٌ أَبيّون وأُباةٌ، قالَ: أَبيُّ الضَّيم: من نَفَرٍ أُباةٍ[1]، والإباءُ: شدَّةُ الامتناع، فكلُّ إباءٍ امتناعٌ، وليس كلُّ امتناعٍ إباءً، قالَ تعالى: ﴿وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ﴾ [التّوبة: 8]؛ أي: امتنَعوا عن قَبولِ الحقِّ[2].

3) ﴿كُفُورًا﴾: (كفر) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على معنًى واحد، وهو السَّترُ والتَّغطية، ويُقالُ للزّارع: كافر؛ لأنَّه يُغطّي الحَبَّ بترابِ الأرض، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: 20]، والكُفرُ: ضدُّ الإيمان؛ سُمّيَ لأنَّه تغطيةُ الحقِّ، ومنه قولُه تعالى: ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾[3]، و"(الكفرُ) أيضًا: جحود النّعمة، وهو ضدّ الشّكر، وقد كفره من باب (دَخَلَ)، وكُفرانًا أيضًا بالضّمّ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ ١٨﴾ [القصص: 48]؛ أيّ: جاحدون، وقوله تعالى: ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾، قال الأخفش: هو جمعُ: كُفر؛ مثل: بَرْد وبُرود"[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

النّظر في خلق الكون يقينٌ وإيمانٌ، والنّأي عنه ضلالٌ وكفران

يقولُ اللّهُ تعالى: أَولم يعلم الكُفّارُ أنَّ اللّهَ الَّذي خلقَ السَّماواتِ والأرضَ قادرٌ على أنْ يُعيدَ أبدانَهم يومَ القيامة، ويُنشِئَهم نشأةً أُخْرَى كما بَدَأهم، وقد جعلَ لإعادتِهم وإقامتِهم من قبورِهم أجلًا مَضْروبًا، ومدَّةً مُقدَّرةً لا بدَّ من انْقضائِها، فأبَى الظّالمونَ بعد قيامِ الحُجَّةِ عليهم إلّا تماديًا في باطلِهم وضلالِهم[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة (الواو) وتعيينُ المعطوف عليه:

إبطالُ فاسد الاعتقادِ بالاستدلالِ بعدَ الزّجْرِ عن إنكارِ البعث والمآل

الواو في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ للعطف، وفي تعيين المعطوف عليه احتمالان:

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أبى).
(2) الرّاغب، المُفردات: (أبى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (كفر).
(4) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (كفر).
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 63.

الأوّل: أن يكون العطف على جملةِ ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم﴾، باعْتبارِ ما تضمَّنتْه الجملةُ المعطوفُ عليها من الرَّدْعِ عن قولِهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾، فبعدَ أن زَجَرهم عن إنكارِهمُ البعثَ بأسلوبِ التَّهديد؛ عطَفَ عليه إبطالَ اعْتقادِهم بطريقِ الاسْتدلالِ، بقياسِ التَّمثيل في الإمكان، وهو كافٍ في إقناعِهم هنا؛ لأنَّهم إنَّما أنكروا البعثَ، باعتقادِ اسْتحالتِه، كما أَفْصحَ عنه حكايةُ كلامِهم بالاسْتفهامِ الإنكاريّ، وإحالتُهم ذلكَ مُستنِدةٌ إلى أنَّهم صاروا عِظامًا ورُفاتًا؛ أيْ: بتعذُّرِ إعادةِ خَلْقِ أمثالِ تلك الأجزاء، ولم يستدلّوا بدليلٍ آخر؛ فكانَ تمثيلُ خلقِ أجسامٍ من أجزاءٍ باليةٍ بخلقِ أشياءَ أَعْظمَ منها من عَدَمٍ أَوْغَلَ في الفناءِ دليلًا يقطعُ دعْواهم[1].

والثّاني: أنْ يكون العطف على فعلٍ مُقدَّر بما يناسبُ السّياق، وتقديره: (أقالوا ذلك، ولم يروا أنَّ اللّه الَّذي خلقَ السَّماواتِ والأرضَ قادرٌ على أنْ يَخلُقَ مثلهم؟!).

غَرَضُ الاسْتفهامِ في جملة ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾:

الاسْتفهامُ في قولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ﴾ إنكاريٌّ مَشوبٌ بتعجيبٍ من انْتفاءِ علمِهم؛ لأنَّهم لَمَّا جَرَتْ عقائدُهم على اسْتبعادِ البعثِ كانوا بحالِ مَنْ لم تظهرْ له دلائلُ قدرةِ اللّهِ تعالى، فيؤولُ الكلامُ إلى إثباتِ أنَّهم علموا ذلكَ في نَفْسِ الأمر[2]، وفيه توبيخٌ للمُنكِرين لما صدر عنهم من استبعاد الإحياء بعد الإماتة، وهم يشاهدون عياناً آثار قدرة اللّه تعالى في السّماوات والأرض؛ فإنَّ مَنْ يشاهد يَعلم، وحقُّ العالم أن يُقرَّ بما يعلم.

إذا ظهرتْ براهينُ الحقِّ فالإقرارُ لا مناص منه عند أهلِ الحقّ

سرُّ استعمال لفظ الرّؤية دون الإبصار:

اختيرت الرّؤية دون البصر، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾، ولم يَقُلْ: (أو

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 220.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 220.

لم يُبْصِروا)، وذلك لتوقُّف الرّؤية على البصر، فقد يُبصر الإنسان دون أن يرى؛ أيْ: يُبصر الجزئيّات، دون أنْ يراها على حقائقها، فإن رآها فهو مُبصِرٌ على الحقيقة، وهو المُراد بالرّؤية، فكانت الرّؤية أعمَّ من الإبصار، فالإبصار مشاهدةٌ بحاسّة البصر، وآلتُها العين الباصرة، والرّؤية إبصارٌ مُؤدٍّ إلى معرفة حقائق المُبصَرات.

الرُّؤيةُ مشاهدةُ المبصَرات على حقائِقِها

نكتةُ الاستعارة في سياق العبارة:

الرُّؤيةُ في قولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾، بعيونِ البصائرِ لا بعيون الأَبْصار، ولكنْ لَمّا كانت رؤيةُ البصائرِ مُتحقِّقةً كتحقُّقِها في رؤية الأبصار لِما قام على العلم بها من الدَّلائلِ الواضحة، اسْتُعيرتْ فكانت في مقامِ رؤيةِ الأَبْصار، وتعلَّقَ الإنكارُ بأصحابِها ما بين البَصَرِ والبصيرةِ سواءً بسواء[1]، والأبصار في العيون وسيلةٌ موصلةٌ إلى البصائر المُستقرّة في القلوب، فإن غفلَ الإنسانُ عن استعمالِها كان كالأعمى سواءً بسواء.

تشبيه بصيرة القلب ببصر العين في التَّحقُّق والثّبوت

دلالةُ التّعبير بالمضارع ﴿يَرَوْا﴾:

حَسُنَ الإتيانُ بصيغة المضارع ﴿يَرَوْا﴾ المنفي بأداة (لم)، ليتوجَّه الاستفهام الإنكاريّ إلى أمرٍ مُتجدِّدٍ في الحياة، وهو مشاهدةُ خلق السّماوات والأرض، فالرُّؤية مُتجدِّدةٌ بتجدُّد السّير في الحياة، وتجدُّد الاعتبار بخلقِ الله تعالى، ففيه تقويةُ الإنكار عليهم، لما يُشاهدونه على الدَّوام.

تجدّد النّظر والاعتبار مُفضٍ إلى تفادي الكفر والإنكار

دلالة التَّأكيد في سياق الآية المجيد:

في قولِه تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ جاءتْ أداة ﴿أَنَّ﴾ قبلَ اسْم العَلَم - لفظ الجلالة - الله؛ لتأكيدِ أنَّ اللّهَ هو الملكُ الأَعْلى المحيطُ بكلِّ شيءٍ قدرةً وعلمًا لا غيرُه الَّذي خلقَ السَّماواتِ والأرض، وإذا كانَ قادرًا على خلقِ هذَيْن الجِرمَيْن العظيمَيْن فهو قادرٌ - لا محالة -

تأكيد المؤكَّد من شأنه تحفيز الأفئدة وتحريك الأذهان

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 518.

على إعادتِهم خَلْقًا جديدًا يومَ البعثِ والنُّشور[1]، ولمّا كان المذكورُ أمرًا مُؤكَّدًا في النَّفس البشريَّة، كان تأكيدُه لتحريك النُّفوسِ تجاه الحقِّ، وهمز الأفئدة نحو الأسئلة الموصلة إلى الجواب الشّافي.

دلالةُ تعريفِ المُسنَدِ إليه ﴿ٱللَّهَ﴾ بالعَلَميَّة:

تعظيمُ خلقِ السَّماواتِ والأرضِ تعظيمٌ لخالقهنَّ في عليائه

دلَّتِ العَلَميَّةُ في لفظِ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ على أنَّ عظمةَ خَلْقِ السَّماواتِ والأرضِ هي من عظمةِ خالقهنّ، وهو اللّهُ لا أحدَ غيرُه، والمعنى: "أولَم ينظر هؤلاء المُنكرون البعث أنّ الله (ﷻ) الّذي ابتدع خلق السّموات والأرض من غير شيء، وأقامها بقُدرته، قادر بتلك القدرة على أن يخلق أشكالهم وأمثالهم من الخلق، وإنّ إعادتهم لا تتعذّر على مَن يقدر هذه القدرة"[2]، وفي ورود لفظ الجلالة من زيادة الإنكار على مَن يُنكر البعث، وعليه فإنَّ ذِكْر لفظ الجلالة يزيد من مهابةِ الموقف وجلاله.

فائدةُ استعمال الاسم الموصول صفةً للاسمِ الأَعظم:

الإيماءُ إلى وجهِ بناءِ الخبر وهو الإنكارُ عليهم

وُصِفَ اسْمُ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِى﴾ للإيماءِ إلى وجْهِ بناءِ الخَبر، وهو الإنكارُ عليهم؛ لأنَّ خلقَ السَّماواتِ والأرضِ أمرٌ مُشاهَدٌ معلوم، وكونُه من فعلِ اللّهِ لا يُنازِعونَ فيه[3]، كما أنَّ هذا الوصف فيه تخصيص الخلق به سبحانه دون سواه؛ أي الخالق لهنَّ بالانفراد، فمجيء الاسم الموصول بصلته لبيانِ اختصاص الصّلة بالموصوف، فإذا كان كذلك؛ كان إثبات البعث للّه وحدَه من مقتضيات الإيمان بأنَّه الخالق وحدَه.

نكتةُ جمع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإفراد ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾:

جمعُ السّماوات لشرفِها، وإفراد الأرض لخفّة لفظها

جُمع لفظ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وأُفرد ذِكْر ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ في قوله تعالى: ﴿*أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ﴾ للإشارة إلى

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 518، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4465.
(2) مكّي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 6/ 4298.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 221.

تفاوتهما في الشّرف، فجمع الأشرف اعتناءً بسائر أفراده، وأشرفيّة السّماء؛ لأنّها محلّ الملائكة المُقيمين على تفاوت مراتبهم[1]، ولما تميَّزت به من كونها موضِعًا للعبادة والتّقديس والتّمجيد وأنواع العبادات كلّها، ولكونها محطًّا للرّحمة ونفوذ الأوامر والأقضية والتّدبيرات، ثمَّ عقّبها بذِكْر الأرض، مشيرًا إلى عِظَم منافعها، وكونها متصرّفًا للخلق، وبساطًا ممهّدًا للتّصرّفات، واستصلاح الأقوات من الزّروع والثّمار، والفواكه وأنواع المعادن[2]، مُؤكّدا "أنَّ مَنْ قدر على خلق السّموات والأرض في عظمتها وشدَّتها، قادر على أن يخلق مثلهم في صغرهم وضعفهم؛ نظيره قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: 57][3]، كما أنَّ القرآن آثر إفرادَ ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ لخفّة لفظها؛ لأنَّ الجمع ثقيل، وليس ذلك الثّقل في لفظة ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ فجاء جمعًا، علمًا بأنَّ لفظة ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾، وردت في القرآن ثلاثمئة وواحد وستين مرّةً كلُّها على الإفراد[4].

معنى التَّعريف في لفظِ ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾:

لامُ الجِنسِ المفيدةُ عُمومَ البقاعِ المُندرجة في لفظِها

اللّامُ في ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ للجِنْس؛ أي: الجمع لما تحتَه من مُفردات الخلقِ الرَّبانيِّ العظيم في كِبَرِ أجرامِها، وعِظَمِ أحكامِها، وشدَّةِ أجزائِها، وسَعَةِ أرجائِها، وكَثرَةِ ما فيها من المرافقِ والمعادن[5].

سرُّ تنكيرِ المُسنَد ﴿قَادِرٌ﴾:

المعانِدون يُخاطَبون بما يُقرّون، ويُحدّثون بما يفهمون

جاء المُسنَد نكرةً في قولِه تعالى: ﴿قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ دون أن يقول: (هو القادر)؛ وذلك لإقرارِهم في أمر المعاد بما يُثبتونه من القدرة على الخلقِ ابتداءً، فهم يُفردونه بالخالقيَّة، قال تعالى:

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/ 80.
(2) العلويّ، الطّراز: 1/ 76.
(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 12/ 394.
(4) الخضريّ، الإعجاز البيانيّ في صيغ الألفاظ، ص: 81.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 518.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [العنكبوت: 61]، فإذا كانوا كذلك فمجيء المُسنَد نكرةً لمجرَّد الإخبار بتلك القدرة، دون إثبات اختصاصه بها، إذْ هم لا يُنازعون فيها.

نكتةُ ذِكْر حرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰٓ﴾:

أهـمـيّـة حـرف المعنى في سوق الدّلالة وإبرازها

آثر النَّظمُ الإتيانَ بحرف الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ﴾، ولم يَقُلْ: (قادرٌ أنْ يخْلُق)، وذلك لتوريث معنى التّمكّن والاستعلاء، "وإذا كانَ قادرًا على أن يخلق مثلهم، فبالأولى هو قادر على أن يُعيدَ بعضهم أو كلّهم، فهذا إثباتٌ لإعادتهم خلقًا جديدًا بطريق دلالة الأَوْلى، ذَكَر مقدّم الدّليل وترك لهم أن يأخذوا التّالي من المقدّم"[1].

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿أَن يَخْلُقَ﴾:

تجدُّدُ خَلْقِ اللهِ بقدرته الباهرة، مـن دلائـل عظمته الظّاهرة

آثر النَّظمُ التّعبيرَ بأداة ﴿أَن﴾ الدّاخلة على الفعلِ المضارعِ ﴿يَخْلُقَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ﴾، فلم يَقُلْ: (قادر على خلق)؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ هذا الخلقِ في أيِّ وقتٍ أرادَ ﷻ بقدرتِه العظيمةِ المُطلَقَة[2].

سرُّ استعمال لفظ ﴿مِثْلَهُمْ﴾:

من الأدلّـةِ على حقيقةِ البعث ابـتـداءُ الخلق، والإعادةُ أَهْون

آثر النَّظم ذِكرَ المثل في قوله تعالى: ﴿قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ دون أن يقول: (قادر على أن يخلق مثلهم مثل ما خلقهم)، ففيه اختزالٌ لبَسْطِ الأدلّةِ على تحقُّقِ البعث، فاللهُ سبحانه تعالى قادرٌ على خَلقِ مثلِهم بدءًا، وقد خلقَهم هم أنفسَهم بدءًا، فكيفَ بالإعادة وهو أيسرُ في منظورِ البشر؟! ونكتةُ ذلك أنَّ استعمال ﴿مِثْلَهُمْ﴾ يدلُّ عليهم، كأنَّه قال: (خلقكم كما ترون ويخلق مثلكم كما رأيتم ذلك

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4465.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 519.

في أنفسكم؛ فكيف بإعادتكم؟) فجعل الرّؤية واقعةً عليهم عند الإعادة، وهذا من بديع القياس في إثبات الحقائق المنكرة.

ويجوزُ أن يكونَ قولُه تعالى: ﴿مِثْلَهُمْ﴾ في السّياق، كنايةً عن نَفْسِ ما أُضيفَ إليه، كقولِ العرب: مثلُكَ لا يَبْخَلُ، والمعنَى هنا: قادرٌ على أن يخلقَهم؛ أيْ: أن يُعيدَ خلْقَهم، فإنَّ ذلك ليس بأَعْجَبَ من خلقِ السَّماواتِ والأرض[1].

معنى الواو ودلالتها في السّياق:

موعد القيامة قَطْعٌ كرؤية خلق الخلائق

الواو في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا﴾ واو عطفٍ، عطفت الجملة على قوله تعالى: ﴿*أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾؛ فالمعنى: قد علموا أنّ مَن قدَر على خلق السّموات والأرض، فهو قادرٌ على خلق أمثالِهم من الإنس، وجعل لهم ولبعثهم أجلًا مُحقّقًا لا ريبَ فيهِ هو يومُ القيامة[2]، فنزَّل الأجل المضروب منزلة ما يرونه من الخَلْق، وهذا قوّة في الاستدلال المُستفاد من العطف، وفي محاسن التّأويل "أنّ الشّهاب قال: قد علموا بدلالة العقل أنّه قادر على البعث والإعادة، وجعلَ لهم؛ أيْ: لإعادتهم أَجَلًا وهو يوم القيامة؛ يعني أنّهم علموا إمكانها، وإخبار الصّادق بها، وضربه لها أجلًا، فيجب التّصديق به، أو جعل لهم أجلًا، وهو الموت والانسلاخ عن الحياة، ولا يخفى على عاقلٍ أنّه لم يُخلق عبثًا، فلا بدّ أن يُجزى بما عمله في هذه الدّار، فلا معنى للإنكار؛ فظهر ارتباط المتعاطفين لفظًا ومعنًى"[3].

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور على المفعول:

تنزيلُ المُنكَر منزلةَ المُختصّ بالأجل

قُدِّم الجارّ والمجرور في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا﴾ على المفعولِ ﴿أَجَلًا﴾؛ للاهتمام، فإنَّ الخلائق جميعًا قد جعل الله لها آجالًا، أو للاختصاص بقصد لفت أنظار أولئك المُنكِرين بتنزيلهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 220.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 197.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/ 517.

منزلة مَن لم يُجعل له أجلٌ سواهم، وهذا أدّعى في تبكيتهم بسبب إنكارهم لما هو ظاهرٌ مُشاهَدٌ عيانًا.

براعةُ استعمالِ مفردة الأجل وتنكيرها:

تعظيمُ الموتِ لكونه من الأَحداث الجسام والمصائب العظام

الأجلُ عامٌّ محتملٌ للموتِ وللموعدِ الَّذي ضُرِبَ لهم لبعثِهم من قبورِهم، ولأجلِ الحياةِ الدُّنيا المُقدَّرةِ لهم، وفي ذلك كلِّه تعظيمٌ وترهيبٌ لهذا الأجل، وما يتبعُه من أحوالٍ جليلةٍ ومواقفَ عصيبة[1]، فحملُ الأجلِ على الأجلِ الخاصِّ وهو موت كلِّ واحدٍ منهم، والأجل العامّ وهو يوم القيامة، يأخذ دلالةً عجيبةً في قرن انتهاء الأجل في الدنيا ببداية الأجل في الآخرة، وكأنَّه هو هو.

نكتةُ نفي جِنْسِ الرّيب في السّياق:

الرّيبُ في الأَجَل صدودٌ عن الأثر أو إعراضٌ عن النَّظَر

نفيُ جنس الرّيب عن تحقّق الأجل المضروب، في قوله تعالى: ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾، وهذا أبلغ من نفي الوحدة، إذِ النَّفي مُنصَبٌّ على جميع الوجوه الّتي قد يتطرّق منها الرّيب، فجنس الرّيب مَنْفيٌّ جُملةً وتفصيلًا، لِما تكرَّرَ لهم من مُشاهدةِ أنَّه لا تُؤَخَّرُ نفسٌ إذا جاءَ أجلُها، وكذا لا تقدَّمُ على أَجَلِها[2]، ورَيْب المرتابينَ فيه مُكابرةٌ وإعراضٌ عن النَّظَر السَّديد، والتَّأمُّلِ الرَّشيد، فهو من بابِ قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: 2][3].

بلاغةُ التَّعريضِ في السّياق السّديد:

امتنانُ اللهِ تعالى على عبادِه بالإمهال وتذكيرِهم بإنعامِ ذي الجلال

تضمَّنَ قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ تعريضًا بالمِنَّةِ بنعمةِ الإمهال، وتعريضًا بالتَّذكيرِ بإفاضةِ الأرزاقِ عليهم في مدَّةِ الأَجَل؛ لأنَّ في ذِكْرِ خلقِ السَّماءِ والأرضِ تذكيرًا بما تحتويه السَّماواتُ والأرضُ من الأرزاقِ وأسبابِها[4].

(1) الزَّمخشري، الكشَّاف: 2/ 467، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 221.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 11/ 519.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 221.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 222.

بلاغة التَّفريع على جملة الإنكار:

صُدِّرتْ جملةُ ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ بفاءِ التَّفريعِ، وهو تفريعٌ على الجُملتَيْنِ باعتبارِ ما تضمَّنتاهُ من الإنكارِ والتَّعجيب؛ أيْ: علموا أنَّ الَّذي خلقَ السَّماواتِ والأرضَ قادرٌ على إعادةِ الأجسام، ومع عِلْمِهم أَبَوْا إلّا كُفورًا، فالتَّفريعُ من تمامِ الإنكارِ عليهم والتَّعجيبِ من حالِهم[1]، بل هو محزُّ الإنكار والتّوبيخ والتّقريع، لاسيّما مع استعمال صفتَي الإباء والظّلم.

الإنكارُ عليهم والتعجيبُ من شَأنِهم مفيدٌ في الإبانة عن المعنى

بلاغةُ استعمال لفظ ﴿فَأَبَى﴾:

استعمَلَ النَّظم مفردة الإباء في قوله تعالى: ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾، وذلك لبيان شدَّة التَّمنُّع عن الاعترافِ بالحقّ، فإباؤهم إباءُ ظُلمٍ مقرونٌ بالعناد والإصرار، وهذا أبلغ من أن يُقال: (فكفر الظّالمون)، وذلك لما في هذا اللّفظ من الدّلالة على شدّة الامتناع مع كراهيَة الاعتراف، ودوام هذا الحال[2].

الجمع في الإباء بين شدَّة الامتناع وشعور الكراهيّة

نكتةُ وضع المُظْهَرِ مَوْضعَ المُضْمَرِ:

لَمّا بيَّن اللّهُ تعالى أنَّه المُنفردُ بالقدرةِ على الإيجادِ والإعدام، وأنَّ المشركين قد علموا ذلك علمًا كالمَحسوسِ المرئيِّ، فتسبَّبَ عن ذلكَ السَّببِ للإيمان أن أَبَوْا؛ فكان مقتضى الظّاهر أن يُقال: (فأبوا إلّا كفورًا)، لكنَّ النَّظم آثر التَّصريح بوصفهم، فقال: ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ لتسجيل سبب كفرهم، وهو ظلمهم، والمُراد بالظّلم هنا: الشّرك.

تعميمُ الحُكمِ عليهم بوصفِهم بالظُّلم المُفضي إلى الكفر

نكتةُ اخْتيارِ لفظِ ﴿كُفُورًا﴾:

اخْتيرَ لفظُ ﴿كُفُورًا﴾ في قولِه: ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ تنْبيهًا على أنَّهم كفروا بما يجبُ اعتقادُه، وكفروا نعمةَ المُنعِم عليهم، فعبَدوا غيرَه[3].

التَّنبيهُ على الكفرِ بالملّة، والكفران بالنّعمة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 222.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (أبي)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (أبي).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 222.

دلالةُ التَّعبير بصيغة ﴿كُفُورًا﴾:

عناد الكفرة لا ينضبط بعقل ولا يرتدع بضمير

أُتي بصيغة فعول ﴿كُفُورًا﴾ دون (كُفرًا)؛ لبيان أنّ كفرهم مبالَغٌ فيه خارجٌ عن دائرة المعقول والمقبول، لأنَّ المُرادَ أنَّه كُفرٌ مُلِحٌّ موغلٌ، وليس مجرَّدَ كفرٍ عاديٍّ، فزيادةُ المبنَى تدلُّ على زيادةِ المعنَى[1].

توجيهُ المُتشابهِ اللَّفظيِّ بين آية الإسراء (99) وآية الأحقاف (33):

منهج السّياق في الاستدلال على إبطالِ الكُفرِ بدليلٍ حِسّيٍّ مُشاهَدٍ

جاء قوله تعالى: ﴿۞أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ معطوفًا على السّابقة، إذْ هي متَّصلةٌ بها من حيث إنكارُ الكافرين ليومِ البعثِ بقولِهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾، فجاءَ الاسْتدلالُ على إبطالِ كُفرِهم بدليلٍ حِسّيٍّ مُشاهَدٍ لهم، بقولِه تعالى: ﴿۞أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾، وهو نفسُ الدَّليلِ الّذي ساقتْه آيةُ الأحقاف بقولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأحقاف: 33]، وهو كذلك عَوْدٌ إلى الاسْتدلالِ على إمكانِ البعثِ مُتَّصلٌ بقولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ [الأحقاف: 17] فهو انْتقالٌ من الموعظةِ بمصيرِ أمثالِهم من الأُمَمِ إلى الاسْتدلالِ على إبطالِ ضلالِهم في شِركِهم، وهو الضَّلالُ الَّذي جرَّأهم على إحالةِ البعث.

والواو في كلتا الآيتَيْن في الإسراء والأحقاف عاطفةٌ جملةَ الاسْتفهام، وهو استفهامٌ إنكاريٌّ والرُّؤيةُ علميَّة، وهي حُجَّةٌ بيِّنةٌ مُشاهَدَةٌ، وهي دلالةُ خلقِ السَّماواتِ والأرضِ من عدم، وذلك من شأنِه أن يُفْرَضَ بالعقلِ إلى أنَّ اللّهَ كاملُ القُدرةِ على ما هو دونَ ذلكَ من إحياءِ الأموات.

وفي آيةِ الأحقافِ وقعتِ الباءُ في خبرِ ﴿أَنَّ﴾ [الأحقاف: 33] وهو

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/ 4466.

﴿بِقَٰدِرٍ﴾ [الأحقاف: 33] باعْتبارِ أنَّه في حيِّزِ النَّفْي، مع ما أفادتَه الباءُ من التَّوكيد، وما أفادتْه الآيةُ كذلك من نَفْي العَجزِ عن العملِ مع تَعديتِه بالباءِ من بلاغةٍ ضافية، ليفيدَ بالنَّتيجةِ انْتفاءَ عَجْزِه في تدبيرِ مقاديرِها ومناسباتِها، فكانتْ باءُ المُلابَسَةِ صالحةً لتعليقِ الخَلقِ بالعيِّ بمعنَيَيْه، وذلك كلُّه مُستنبَطٌ من جملةِ ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ [الأحقاف: 33] الَّتي زادتْ تأكيدَ قدرةِ اللهِ وجلالِ عظمتِه في خَلقِه، ممّا يستَتْبِعُ قدرتَه العظيمةَ ﷻ على إحياءِ الموتى وبعثِهم من قبورِهم بقولِه تعالى: ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الأحقاف: 33] ممّا زاد تجليةَ هذا المعنى في آيةِ الأحقافِ عمّا هو عليه في آيةِ الإسراء[1].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 517 - 518، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 63 - 64.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والعشرون،
سورة الإسراء من الآية 78 إلى سورة الكهف الآية 36
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والعشرون، سورة الإسراء من الآية 78 إلى سورة الكهف الآية 36
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 29 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-26-5
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 29 : المجلد التاسع والعشرون، سورة الإسراء من الآية 78 إلى سورة الكهف الآية 36.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-26-5
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6484549 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»